

## أزمة الموت.. والحلم

سباعي عثمان

كذلك .. وجدنتني أعجز عن الاحاطة بأشياء كثيرة ..  
 أمكنة، وأزمان عشتها .. هي، حلم .. ربما .. هي،  
 حقيقة .. ربما .. الواقع أنني أتطوح في مناهة بلا حدود ..  
 أحس أنني قفزت حوايط، ضخمة .. قلاعاً خرافية ..  
 أسماء غريبة، وأخرى غامضة .. وجوه كثيرة .. بعضها  
 جماجم، لكنها تنبض بالحياة .. تتلامع في مخيلتي صور  
 متلاحقة .. تلبس بعضها في لا مكان، ولا زمان ..  
 تموت .. تحيا .. تفكك .. تتحرك .. تجمد .. بعضها  
 مشروخة .. بعضها يتماوج، كما لو كانت أجساماً، ساكنة،  
 متحركة، تحت الماء .. ما الحقيقة ما الحلم .. ما اليقظة ..  
 ما النوم .. ما الموت .. هه؟ .. أوه .. أسئلة كثيرة ..  
 تتشابك .. تتدد .. أعصر ذهني .. أستحضر ذاكرتي ..  
 أخضها .. أبعثر ركامها الهائل .. أجوس خلالها .. أجد  
 الزمن يتبخرفها بدأ .. بدأ .. !

\* \* \*

قال الراوي: فقدت - يا سادتي - علاقتي بالأشياء، في  
 ذلك الغياب العجيب .. فلما استعدتني - أظنه قال: «فلما  
 عدت» .. لا .. لا .. معذرة .. كأنه قال: «فلما  
 استفتت» .. نعم .. تماماً .. هذا ما قاله بالضبط - قال: فلما  
 استفتت، عجبت من ذلك كله، رغم عجزني عن تمثله، ثم  
 صارت أحداث ذلك الزمن الغائب تفاجئني بين حين،

قال الراوي: حلمت - يا سادتي - ليلة البارحة .. ردها  
 ثلاثاً، ثم توقف للحظات .. اجتاحه شرود، أفقده التركيز  
 بعض الوقت .. تردد، في محاولة لاستدعاء ذاته الهاربة ..  
 لا .. لا .. معذرة .. أظنه قال: «أحلم - يا سادتي» ..  
 ردها ثلاثاً، ثم استدرك: ليس تماماً .. ربما، كما يأتي  
 المرء - منا - أت، وهو بين اليقظة، والنام .. غيبوبة ما ..  
 نعم .. هو كذلك .. أطرق قليلاً، وهو يحتضن رأسه بين  
 راحتيه .. أحس كأنه يتطوح في بئر عميقة .. رحلة  
 مجهولة .. لا يكاد يذكر لها بداية، ولا نهاية .. حلق في  
 الفراغ، طويلاً .. كان متوتراً، وفي نفسه - ربما يقصد، «في  
 ذهنه» - صخب، يصم أذنيه .. تماماً، هذا ما يقصده  
 بالضبط .. أحس كأنما هو أت من وراء شيء كبير .. كبير،  
 قدرت أنه الكون، مثلاً، لا يمكن أن يكون أقل من ذلك،  
 فيما أتصور .. قال: كان فترة ما، مفقودة من ذاكرتي،  
 أحدثت خللاً - أظنتني أعني: «فجوة» - في مسيرة حياتي ..  
 ماتت في داخلي .. تجاوزتها بكيفية ما .. ساعة ..  
 ساعتان .. شهر .. سنة .. سنتان .. الله أعلم ..

في بعض هذا الغياب، لم أكن أنا .. أنا .. كان في معيتي  
 «أنا» آخر .. أعتقد أنه مشطور عني .. ربما كنت، أنا ذلك  
 «الأنا الأخر» .. نفسه .. لا أدري .. لا أدري .. !

نفذ رأسه، بعصية، وعاد يفرق في الفراغ .. نعم، هو

وآخر... في بعضها - مثلاً - رأيت «الحارث بن حلزة»... هكذا...!... تصافحنا... قلت له: «أهلاً بك يا حارث»... هكذا، دون ألقاب... لم تحجيني عنه أية كلفات، أو حواجز... أعرفه منذ زمن طويل... تزامننا في المرحلة الثانوية... كان قد كبر، وغزا الشيب رأسه... تبادلنا أحاديث شتى، استعدنا فيها أحلى الذكريات... ونحن في بعض هذا الحديث، فجأة، تلبسه وجه «هاملت»... يصول ويجول على خشبة مسرح خرافي بلا جمهور: «إنني لأتساءل، ما إذا كنت حقاً موجوداً في هذا الوجود، أم غير موجود، فأني من الحالتين أمثل يا ترى... أستكين للرجم والمظالم... أم أنهض لمقاومة المصائب، ولو...!»<sup>(١)</sup> لكن سرعان ما غلغه صدى صوته المنفعل، الراعش... فجأة تداخل - ببطء - في وجهه، لم أتيه... بدأ يتنازعان شخصية مهزوزة... كان «الحارث بن حلزة»، وآخرون، يتبددون بينهما... يتبخرون، وأتبخر أنا... أكاد أنام... أصحو... أكاد أكون لا شيء... لست في ذات الزمان... لست في ذات المكان... أوه... نسيت أن أقول لكم: أنسي - في بعض هذه التحولات - رأيت المغني «زرياب»، في مجلس فخم، يبحر في موال من «الأوف»، و«الميجنا»، و«هولو» الخليل، يُودعه رحم الليل... هزني الطرب وسط حضور غائم في دخان عود مُعطر... كدت أصرخ: «أوف... أوف»، لكنني خشيت أن يتبدد صوتي في عالم، لست فيه... وجوه كثيرة، وجماجم، تتمايل طرباً... تختلط... تتبخر... أجدني أفق على باب قصر الرشيد... هكذا... أظنني دفعت الحاجب بجلافة، ودخلت... وقفت أمام الخليفة، في دهشة من حضوره، كأنني مبعوث رسمي... قلت له:

«يا أمير المؤمنين... أدام الله عزك... لقد أضعنا مجدنا»... واحتبست الكلمات في حلقي... بعد ثوان، تابعت: «نعم - يا أمير المؤمنين - أصبح كأن لم يكن... ما كنا أمناء على ما ائتممتونا عليه...!... وبكيت... بكيت... ثم تابعت: «ليتك تستطيع أن تجيء إلينا، وترى ما صرنا إليه من هوان...!...»

لا أدري... لماذا شكوت إليه، هو، بالذات، دون غيره... فجأة تبدل وجهه... استشاط غضباً... ارتبكت... أظنني أسأت الأدب؟ كنت منفعلاً... قال: «أخرجوا هذا المعنوه من مجلسنا...!... بدأ عليه، أنه لم يصدقني... لا أدري لماذا...!... وفيما أنا بين أيدي

صَفَّق الرشيد... قال: «أخرجوا هذا المغرور من مجلسنا»... لكنه، كان قد غاب في غبار فرسه... قال إنه متجاً إلى مصر... توأدعنا، وتوآدعنا على اللقاء، عند الهرم الأكبر...!

لم يمض، من ذلك الحدث المثير، حين، حتى تبذل الحال... وقعت أحداث كثيرة، واجتاحنا وباء... قالوا إنه «الطاعون»...!... مات من مات، ونجا من نجا... وهرب خلق كثير، وفقد آخرون...!... في زمن آخر - أظنه، ذات الزمن، لا أكاد أتيه - كانت طائرات «هتلر» تقصف مدينة لندن، وكان رومل يزحف نحو العلمين... كان «أبو الهول» يتحسس أنفه، الذي جدعه «نابليون»، وكانت كليوباترا، تبكي: «آه... يا أنطونيو... أنت تقهرني...!...» كانت هذه آخر كلماتها... كان صوتها يتحشرج في حلقتها... في الصباح، كانت قد رحلت... انتحرت بالسسم... وكان عسكر «بيبرس»، يجتاز باب زويلة إلى جهة غير معلومة... بينما كان «امرؤ القيس» يغازل «فاطمة» عند سفح «عيان» في الهاجرة... كانا يتعاطيان الحب في كؤوس من شعره... ضغطت على صدغي بقوة... كان رأسي مثقلاً، وكان جدي - وقشذ - مستغرقاً في كتابه الأثير «كليلا ودمنة»، بحضور شديد... كان لا يمل قراءته... كان صوته يأتيني من بعيد... من عالم، ليس، هو منه، ولست أنا فيه:

«قال: دَبْشَلِيم . . . ملك الهند، لِيَبْدَبَا . . . رأس فلاسفته: أضرب لي مثل الرجلين المتحايين، يقطع بينهما الكذوب، الخثون . . .!»<sup>(١)</sup>.

ورشف رشفة - أظنها رشفتين - من فنجان الشاي المعتق أمامه، وتابع: قال يَبْدَبَا الفيلسوف: إذا ابْتُلِيَ الرجلان المتحابان، بأن يدخل بينهما الخثون، الكذوب . . . تقاطعا، وتدابرا، وفسد ما بينهما من المودة . . .! <sup>(٢)</sup> . . . حفظت هذا، على مدى أعوام، لكثرة ما تردّد في أذني . . . قلت لجدي: «هل تعرف يَبْدَبَا، هذا . . .؟» . . . الواقع . . . هذه هي المرة الأولى، التي خطر لي فيها، أن أسأله مثل هذا السؤال . . . قال لي، وهو يتسم: إنه «لم يزر بلاد السند، والهند في حياته، لكنه، سمع من شيخه، أنه كان رجلاً حكيماً . . . بعيد النظر . . . نافذ البصيرة . . .!» واستمر يقرأ: «ومن أمثال ذلك، أنه كان بأرض «دَسْتَابَنْدُ» تاحر مكثراً، وله بنون . . .»<sup>(٣)</sup> . . . أغلق جدي كتابه، وقام يصلى العصر . . . تفرّست في وجهه العامر بالخطوط، والتجاعيد، وقلت: ياه . . . ترى . . . كم من السنين، مشيت - يا جدي - تدبُّ على وجه الأرض . . . ما أغنى ذكرياتك . . .!

تعجبت من صلابته، وقوته . . .

رحت أقرأ في وجهه حكايا عجيبة . . . بعض لداته، مات، وبعضهم عجز عن الحركة، ومايزال - هو - قوياً، وفيه طاقة تكفيه لسنوات أخرى . . . يا له من رجل . . . يا له من رجل . . .!

\* \* \*

قال الراوي: أحلم - يا سادتي - ليس تماماً . . . ربما، كما يأتي المرء - منا - آتٍ، وهو بين المنام، واليقظة . . . أنهى جدي صلاته، ودعا دعاء الأثير: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا، أو أخطأنا . . .» . . . ومسح وجهه بكامل راحتيه . . . ثم استرخى، واستأنف قراءته: «قال: فلما أدركوا، أسرعوا إلى مال أبيهم - والكلام ليَبْدَبَا - ولم يحترفوا حرفة، تردُّ عليه، وعليهم، فلامهم أبوهم، ووعظهم . . .»<sup>(٤)</sup> . . . قلت له: «كيف أتعلم الحكمة يا جدي . . .؟» تبسم - في طيبة حانية - قال: «هذا ما لا سبيل إليه . . .!» . . . تعجبت . . . أحسست أنه يستصغرنى . . . قال لي: «يا بني إن الحكمة لله يؤتيها من يشاء . . .!» . . . شعرت برهبة العبارة . . . تأملت كلامه في حيرة . . . خيل إلي أنني أندفع في هوة عميقة . . . لكنه نظر إلي - في حنو بالغ - وتبسم . . . أحسست أنني - في هذه

اللحظة - أقرب إليه من أي وقت مضى . . . وقتها كنا - فيما يبدو - نأهب للرحيل . . . قالوا نصلي العشاء في مراكش . . . ثم نستأنف رحلتنا إلى طليطلة . . . قال أحدهم، لم أتبينه: «لم يدخلها طارق بن زياد، بعد . . .!» . . . قال آخر - أظنه «مارشال» معاصر، في جيش مهزوم، في الحرب العالمية الثانية - هكذا يبدو - قال: «لقد أفسد علينا طارق هذا رحلتنا . . .!» . . . دخل علينا وجه، صارم الملامح - في «زوم» بطيء . . . تبعه صوته، ذو الصدى المتردد . . . قال: «ما تريدون في طليطلة، والطرق إليها غير سالكة . . .؟» . . . قلت لهم: «من هذا . . .؟» فاحتاروا . . . ما كان معنا . . . ولا كنا معه . . . سألته في حيرة: «من أنت . . .؟» . . . نظر إلي - في كبرياء ولم يجب . . . قلت له: «هل أنت الحارث بن حلزة . . .؟» . . . أظننا التقينا من قبل . . . أليس كذلك . . .؟! . . . ضحك . . . قلت: «من تكون إذن . . .؟» . . . فلا يمكن أن تكون نابليون . . . أو حتى أنطونيو، مثلاً . . .؟» . . . قال - في كبرياء: «أنا طارق بن زياد . . .!» . . . وكما لو كانت موسيقى تصويرية صاخبة من أعمال «هايدن» - مثلاً - تتدفق، عقب مشهد مثير، أو ضربات طبل مسرحية، متعاقبة، قبيل فتح الستار، سيطر علينا جو من الدهشة، حبس منا الأنفاس . . . كدت أسمع خفقات قلوب من حولي . . . وما كدنا نفيق، حتى أعلن أحدهم - أظنه ذلك المارشال: - «أيها السادة . . . هذا طارق بن زياد . . .!»، وأشار إليه . . . فجأة . . . أحاط به صحفيون، ومصورون . . . ما كانوا معنا . . . بدوا، كما لو وجاءوا من كوكب آخر . . . اضطرب المكان، وفقدنا بعضنا . . . كان الزمن يدور، لحظتئذ، وراء الكون، في وقت ما، منه، ثم يتبدد، كأن لم يكن شيء:

في الصباح . . . كانت صورة «طارق بن زياد» على أغلفة المجلات، وعلى صدر صفحات الصحف . . . كان يتحرك في أيدي الباعة على الأرصفة، والنواصي . . .

«طارق بن زياد يتمرد على الخلافة في الشام . . .!» . . .

ضرب جدي كفا بكف . . . قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله . . . لقد جنَّ ابن زياد . . .!»، وتوجس الناس خيفة على هذا القادم، في غفلة من الزمن، والأحداث . . . قلت لجدي: «هل تعرف طارق بن زياد، هذا . . .؟» . . . تبسم، ثم أطرقت قليلاً، كأنما يحاول تمثله في الذاكرة . . . قال: «كان يكبرنا بسنوات كثيرة . . . كنا أطفالاً، وكنا نسمع أهلنا يتحدثون عن

انتصاراته...!.. قلت له: «لماذا انتحرت كيلوبترا...  
إذن...؟».. قال: «تدللت على أنطونيو، حتى الموت...  
حتى الموت... هل فهمت...؟!.. أردت أن أقول له:  
«لم أفهم...!» لكنني أحجّمت... لا أدري لماذا... ربما،  
لأنني لم أكن، فيما كان حينئذ... أظن ذلك...!

\* \* \*

قال الراوي: فلما تجاوزنا باب زويلة، خلف عسكر  
«بيبرس»، وودعناهم، حتى خارج المدينة... جاءنا من  
يقول: «إن طارق بن زياد، قد أحيل إلى التقاعد...!»..  
دارت رؤوسنا... أحسست أنني أفقد توازني، وأني أسبح  
في فراغ لا نهائي... فجأة... تهدم ذلك المجد كله: «كيف  
حدث ذلك، يا ابن نصير...؟!».. قال جدي ذلك، كأنما  
يعاتبه... ثم أضاف: «لا أدري... ما الذي يحدث في هذا  
الزمان...؟... لا حول ولا قوة إلا بالله...!»، واحتضن  
رأسه بين راحتيه... كان دوار عنيف، يعصف برأسي، حين  
جاء رسول القافلة يقول: «لقد جدع قصير أنفه، وأن  
«الزّباء» أغمدت خنجرأ في صدرها، وقال بعضهم - رسول  
القافلة -: إنها تجرعت سماً من خاتمها... صرخت، في  
تلذذ: «بيدي، لا بيد عمرو...!».. حرمت ابن عدي من لذّة

الانتقام...! قال جدي: «أي امرأة كتبتها يا زبّاء؟!»..  
وغاب الرسول، كما لو لم يجيء... أحسست أن بعض هذا  
الحوار غاب عني... يبدو أنه تجاوزني، لا... لا...  
معذرة... أظنني، أنا الذي تجاوزته... نعم... هذا ما حدث  
بالضبط...!

دار الزمن، والثّف، وتداخل... تماوجت الوجوه،  
والجماجم، ثم ما لبثت أن استقامت في عملية عجيبّة،  
تجاوزت إدراكي... لم يكن في وعيي سوى الدماء التي  
تنفجر من صدر «الزّباء»، وسوى الكلمات التي كانت تموت  
على شفّتي «كيلوباترا»، ببطء: «آه... يا أنطونيو... أنت  
تقهرني... ما كان أقساه، «أنطونيو، هذا... ما كان  
أقساه...!»

في خارج المدينة... كان عسكر «بيبرس» يترأى، وهو  
يغيب في الأفق البعيد... البعيد، في زمن يتنازع أوله،  
آخره... زمن، ليست له بداية ولا نهاية...!

جده.

(١) النص من مسرحية «هملت» ترجمة غازي جمال.  
(٢، ٣، ٤، ٥) نص «كليلة ودمنة».

## دار الآداب نضم

### سلسلة بطولات عربية

- زنوبيا فارسة الصحراء، بقلم فالح فلوح.
- سيف الدولة الحمداني، بقلم فالح فلوح.
- معركة الزلاقة، بقلم فالح فلوح.

- لبيك أيتها المرأة، بقلم سليمان العيسى.
- الحدث الحمراء، بقلم سليمان العيسى.
- ابن الصحراء، بقلم سليمان العيسى.
- صلاح الدين الأيوبي، بقلم فالح فلوح.

دار الآداب - شارع اليازجي - بناية مركز الكتاب - ص. ب. ٤١٢٣ - تلفون ٨٠٣٧٧٨